(٤)

أدبـيـات وجوائز

□ هيرتا موللر

(نوبل ٢٠٠٩)

□ تونى موريـسون

(نوبل ١٩٩٢)

□ فاسوافا شمبروكسا

(نوبل ١٩٩٦)

هيرتا موللر

ما أغرب هذه الجائزة فى اختياراتها! ونحن لا نقلل من أهمية الكاتبة «هرتا موللر» الفائزة عام ٢٠٠٩ بجائزة نوبل، ولكنها بلا شك ليست هى الأكثر أهمية، حسب قائمة المائة كاتب النوبليين الذين نشرت أسماؤهم قبل أيام من إعلان الجائزة.

امتلأت نشرات الأخبار- قبيل الإعلان عن الجائزة- بأسماء عشرة أدباء فقط، من بين هؤلاء الستين، باعتبار أن من يتصدرون القائمة هم الأكثر أهمية، أو لديهم الفرص الأفضل للفوز، وهذه الأسماء هى الروائى الإسرائيلى «عاموس ماوز»، والأديبة والمخرجة الجزائرية «آسيا جبار»، ثم الروائى الأسبانى صديق الثقافة العربية «خوان جويتسولو»، والروائية الأمريكية «جويس كارول أوتس» – ثم الشاعر السورى «أدونيس»، والروائى الإيطالى «أنطونيو تابوكى»، والروائى الإيطالى «كلوديو ماجريس»، والروائى اليابانى «هاروكى موراكامى»، ثم الروائى الأمريكى المنعزل، لقليل الإنتاج «توماس بينشون»، والروائى السويدى «توماس تراتستووم»..

والحقيقة أن قائمة المائة، امتلأت بالغرائب، غرابة الجائزة نفسها واختياراتها غير المبررة، فهناك أدباء بأعينهم، كانوا على قمة القائمة في سنوات سابقة، صاروا الآن في ذيلها، دون سبب، وكأن الكاتب يفقد قيمته، عبر السنين، لو أهملته الجائزة في ترشيحاتها، منهم على سبيل المثال البيروفي ماريو بارجاس يوسا (١٦) الذى حصل عليها مؤخرًا، والتشيكي ميلان كونديرا (٣٤)، والمسرحي والروائي النمساوى بيتر هانكه (١٩)، والكندرية مارجريت آتوود (٢٣)، والبرازيلي كارلوس فونتس (٢٩)، والإفريقي شينو أشيبا (٢٩)، والإيطالي المبدع أمبر تو ايكو، والفرنسيان ميشيل تورنيه (٥٥)، وباتريك موديانو (٥٦)، ثم النمساوى بول أوستير..

وإذا كانت الجائزة قد عادت بعد خمس سنوات إلى اللغة الألمانية مرة أخرى، فإن من بين هذه الأسماء من يستحق عن جدارة، وهي أسماء مقروءة في لغات عديدة، منها اللغة العربية مثل بيتر هاندكه، وبول أوستير، لكن ما حدث في عام ٢٠٠٤، كان مؤشرًا سيئًا بالفعل اختيار الفريدة يلينيك؛ حيث طلع علينا واحد من أعضاء لجنة اختيار الفائزين، بعد فوزها بعدة أشهر واعترف أن اختيار مؤلفه «عازفة البيانو» كان خطأً بشعًا.. مما يعني أن اختيارات الجائزة ليس أبدًا هو الأصح، أو الأفضل..

وإذا كانت الجائزة قد منحت إلى كاتبة تمثل الأدب المكتوب بالألمانية، للمرة الثانية خلال خمس سنوات، بصرف النظر عن ثقافتها، كي تكون هيرتا موللر هي ثالث امرأة تفوز بها خلال هذه

السنوات الخمس، فإن هناك كاتبة ألمانية أكثر أهمية من موللر بمراحل طويلة، هى كريستا فولف، وهى أيضًا مقروءة فى اللغة العربية..

إذا أردت أن تقيس أهمية كاتب: فعليك أن تتصفح مكانة كتبه فى المكتبات الفرنسية، لكن بالنظر إلى اسم موللر فى هذه المكتبات، فسوف تكتشف إلى أى حد هى مجهولة، وغير مقروءة فى هذه اللغة، والغريب أنه بتصفح مواقع أهم مجلات عروض الكتب الفرنسية مثل: «لير»، «ماجزان ليترير»، فسوف نجد أن الاسم «غير» موجود بالمرة..

وبالاتصال ببعض أساتذة الأدب الألمانى، الذين عاشوا طويلاً فى ألمانيا، ووسط هذه الثقافة، أشاروا إلى أنها كاتبة بدرجة جيد، أى إنها ليست فى امتياز تايوكى، وكارول أوتس، وجويستولو، ثم كونديرا، ويوسا، على الأقل. ويبدو أن هذا العقد قد شهد أسماء أقل أهمية فازت بالجائزة، منها أميرى كيرتش، وبعض الأسماء الأخرى.

والغريب أن الإعلان عن فوزها بالجائزة، قد اعتبرها شاعرة فى المقام الأول، على رغم أنها روائية غزيرة الإنتاج..

تمثل هيرتا موللر ثقافة الأقليات التى تناثرت فى أمم عديدة، حسب التغير الحاد فى سياسات الدول الأوربية، فهى تنتمى إلى أقلية ألمانية عاشت فى غرب رومانيا، حيث ولدت فى ١٧ أغسطس عام ١٩٥٣، فى ننشيفورو، بقرية تيميس، أى إنها مولودة رومانية بثقافة وهوية ألمانية، أبوها مزارع من جنس يسمى السوابيان، خدم فى قوات الصاعقة، أو البوليس السرى فى الجيوش النازية، أما أمها،

فتبعًا لهويتها، فقد تم نفيها فى معسكر ألمانى فى الاتحاد السوفيتى عقب هزيمة ألمانيا..

درست «هيرتا» الأدب الألمانى، والأدب الرومانى فى جامعة تيميساوا، وفى عام ١٩٧٦، بدأت العمل كمترجمة فى إحدى الشركات الهندسية، لكن ما لبثت أن تم طردها بعد ثلاث سنوات، لرفضها التعاون مع قوات العسكرتارية، وهى ما يعرف بالشرطة السرية للنظام الشيوعى. عاشت حياتها تعمل فى مجال التدريس فى الحضانة، وأيضًا فى الدروس الخصوصية فى اللغة الألمانية، كتبت رواياتها أحيانًا باللغة الرومانية، لكنها فى الأغلب مكتوبة باللغة الألمانية.

تعرضت مجموعتها القصصية الأولى لمقص الرقيب، ونشرت فى بوخارست منقوصة، لكنها صدرت كاملة بعد عامين فى ألمانيا، وفى العام نفسه نشرت مجموعة قصصية ثانية باسم «تانجو الضغوط»، ويقال إن اسم الكتاب الأصلى هو ١٩٨٢، كما أن لها اسما ثالثا باللغة الرومانية هو «الأراضى المنخفضة».

سرعان ما تم التنبيه إلى أهميتها، ففى هذه الأعمال وصفت الكاتبة أسلوب الحياة فى قرية ألمانية صغيرة، تتبع الإدارة الرومانية، يسيطر عليها الفساد والتعصب والقهر الذى عاشت فيه، ولا شك أن مثل هذه الشفافية كانت ضد هوى نظام الديكتاتور تشاورشيسكو، لذلك هاجمها نقاد الصحافة القومية فى رومانيا، بينما قوبلت باستحسان ملحوظ فى الأوساط الناطقة باللغة الألمانية خارج بلادها.

وكما أشــرنا، فقد تعرضت هذه الأعمال الأولى للمنع داخل بلادها، وفــى عام ١٩٨٧، كانت قد نشــرت مجموعتــين قصصيتين، وروايتين هما: «برلين» عام ١٩٨٦ و«قبل فبراير» عام ١٩٨٧، وقررت أن تهاجر إلى ألمانيا الغربية مع زوجها الروائى ريتشــارد فاجنر، وصحبت معها أصول أعمالها الكاملة، كى تعيد نشرها فى برلين..

لم تختر هيرتا ميللر الحياة فى النظام الشيوعى، أى إنها لم تذهب إلى برلين الشرقية، التى سرعان ما شهدت انهيار الجدار، وتتابعت أعمالها الروائية، وهى على التوالى حســب ترجمتها عن الإنجليزية والفرنسية والألمانية: «الســفر على قدم واحدة» عام ١٩٨٩، «الشــيطان منعكسًا فى المرأة» عام ١٩٩١، و «الثعلب هو الصياد»، ثم «البطاطس الســاخنة هى ســرير دافىء» عام ١٩٩٢، و «وصل كأنه لم يصل» عام ١٩٩٤، و «الجوع والحريــر» (مقالات) عام ١٩٩٥، و «أرض البرقوق الأخضر» عام ١٩٩٦، و«فى الفخ» عام ١٩٩٦، و «المشهد الأجنبى» عام ١٩٩٩، و«سيدة تعيش فى شــعر كنوت» عام ٢٠٠٠، و«البيت الذى يتكلم هناك» عام ٢٠٠١، و«الملــك يركــع ويقتل» عــام ٢٠٠٣، ثم «الرجال الشــاحبون وفناجين القهوة» عام ٢٠٠٥، وأخيرًا «أرجوحة الجهاز التنفسى» عام ٢٠٠٩.

وفى مقابــل هذا العدد الكبير، نســبيًا، من الروايــات، فإن قائمة الجوائــز الألمانية التى حصلت عليها، وأيضًا التكريمات، أيضًا طويلة، فإلى جوار ســفرها للعمل كأســتاذ زائر فى جامعات عديدة، وبالإضافة إلى ترجمــة بعــض هذه الروايــات إلى اللغات الســويدية والأســبانية

والإنجليزية والفرنسـية، فإن أول جائزة أدبيـة حصلت عليها كانت فـي بلادها، حتى قبـل أن تبدأ مسـيرتها الأدبية؛ ففـي عام ١٩٨١ حصلـت على جائزة «تيم سـوان» الأدبية، وفي عام ١٩٨٤ حصلت على جائزة الواجهة الأدبية، وبعد ذلك بعام حصلت على جائزتي «رويس» الأدبيـة، والجائزة الألمانية الأدبية التشـجيعية، وهـي كلها جوائز ألمانية، وليست رومانية..

وبمجـرد أن وصلت موللر مع زوجها إلى ألمانيا، حصلت على جائزة «ريـكاردا هوش» عـام ١٩٨٧، وتوالت الجوائز داخـل ألمانيا، بعضها منحـت لها وحدهـا، مثل جائزة النقـد الأدبي عـام ١٩٩٣، وجائزة «كلايسـت» عـام ١٩٩٤، وجائـزة «أريسـتو» عـام ١٩٩٥، وجائـزة «فرانكفـورت» عـام ١٩٩٦، وجائزة «جـراز» عـام ١٩٩٧، ثم جائزة «فرانتـز كافكا» عـام ١٩٩٨، وجائزة «برلـين» الأدبية عام ٢٠٠٥، ثم جائـزة «فورت» للأدب الأوربي عـام ٢٠٠٦، أما الجوائز التي حصلت عليها بالمشـاركة مع آخرين فهما: جائزة «اللغة الألمانية» عام ١٩٨٩، وجائزة «يوسف برتشباخ» عام ٢٠٠٣..

لـو أردنا البحث عن الكاتبة، ومكانتهـا في منتصف الثمانينيات، فإننا لن نجد لها أي ذكر كشـاعرة في الكتـاب الذي أصدره «أندرياس كليب» عام ١٩٨٨، تحت عنوان «الشـعراء الألمـان المعاصرون» – انظر عرض الكتاب في العدد ١٧٩ من مجلة «الفيصل» – وحسـب المقال الذي نشـرته مجلة «أدب وفن» الصادرة باللغة العربية عن الثقافة الألمانية،

فإنــه ورد ذكر «هيرتا موللــر» في نهاية مقال منشــور في عام ٢٠٠٠ حول الأدب النســائي المكتوب بالألمانية، حيث لم يرد أي ذكر للكاتبة باعتبارها شــاعرة، ولكن قيــل إنها «تعيد التفكير فــي رواياتها فيما عانته من قهر أثناء حكم تشاوشيسكو الدكتاتوري، فتسود أعمالها هالة مخيفــة من العتمــة، والغربة، والبرودة، وتجمع فــي كتاباتها، على نحو اقتراني، جزئيات من الواقع إلى شــذرات من الذاكرة، وملاحظات وصورًا من الأحلام تتخذ أحيانًا مســحا ســرياليًا، وتصوغ ذلك كله في لغــة جريئة في بنائها النحوي قوية في صورها، وقد ميز هذا روايات هيرتا موللر من بين عدد كبير من الأعمال النثرية، والتي تواجه فيها الآلام الذاتية بالحياة اليومية العادية من خلال نظرة نرجسية داخلية. ويعظم فيها، من خلال المشــاعر الجياشــة أشــد تعظيم، جو الخسارة والضياع الذي هو من مميزات سنوات التسعينيات..

استــقت «هيرتا موللر» الكثير من رواياتها، من مســيرتها الذاتية. ففــي روايتها «أرجوحة الجهاز التنفســي» روت ما حــدث لأمها في المعسكرات السوفيتية. حيث تم طرد الكثير من الرومان الناطقين باللغة الألمانية إلى الاتحاد الســوفيتي - كما أشــرنا- ومــن بينهم كانت أمها التي عاشــت قبل أن تتزوج في هذه المعسكرات التي أقيمت في أوكرانيا الحالية لقــد عاني أبناء هذه الفئة ذوو الأصول «الصواب» الذين هاجر. أجدادهم من ألمانيا في القرن الثامن عشر، ويصل عددهم الآن في رومانيا إلى ربع مليون نســمة، فــإذا كان الألمان قد أقاموا معســكرات اليهود،

فإن الألمان أنفسهم صاروا محبوسين طوال خمس سنوات، بعد هزيمتهم في المعسكرات السوفيتية، ومن بينهم أمها الصوابية.

روت الكاتبة ما حدث لأمها في هذه السنوات، حيث أشارت إلى أنها عاشت الفاشية والظلم بأشكال مختلفة، وفي مجموعتها «الضغوط» تحدثت عن معاناة أبيها، الذى أجبر على العمل في خدمة الصاعقة الألمانية، في رومانيا. وبعد الحرب، أصاب الرجل حالة من الصمت، مما دفع ابنته أن تتساءل دومًا: هل كان أبي كاذبًا، إنهم يستغلون صمته دومًا كي يكتبوا ما يشاءون.. لقد مات الأب دون أن يتراجع أو يتوب عما فعل. وقد وصفت الكاتبة في كتابها الأول موت الأب، ووصفت من وجهة نظر طفلة– الحياة المرعبة التي عاشها القرويون في قريتها «بانات»، الذين كانوا يفخرون دومًا بأصولهم. لذا حصلت الكاتبة على العديد من الجوائز من ألمانيا الاتحادية، وليس بالطبع من رومانيا، التي قوبل فيها فوز هيرتا موللر بالاستهجان..

أما روايتها «الرجل تدرج كبير على الأرض»، لتعبير «تدرج» باللغة الألمانية يعني الكبرياء، والشموخ، لكنه في رومانيا يعني العكس، فهو نوع من الطير الهارب الذى لا يعرف كيف يسرق، ويختبىء بين الأوراق الكثيفة. أما بالعربية فهو نوع من الطيور الصغيرة كالعصافير.

إنها تروى قصة رجل يسمى «فينوش»، وأسرته، وانتمائه إلى عالم يتلاشى، ينتظر تصريح مرور منذ مدة طويلة، فهو مثل أبناء عشيرته، ممنوع عليهم الانتقال، كما أنهم يعانون من نقص الشرطة السرية،

لحيواتهم، ويعانون من الإذلال والخوف، فى ظل كافة الأنظمة، فهم قبل الحرب، أجانب، وفى الحرب هم منبوذون، وبعد الحرب يقعون تحت طائلة أحكام الديكتاتور.

لا شك أن الأعمال الأولى للكاتبة، هى التى تم التركيز أكثر عليها الآن، بعد فوزها بجائزة نوبل، حيث تثبت الكاتبة من جديد أنها قد وقفت ضد النظام الشيوعى الأسبق، وهى ظاهرة معروفة فى الإبداع الذى يحصل على جوائز.

تبدأ رواية «الموعد» للكاتبة، بترام يقل امرأة فى الثلاثينيات من عمرها، سوف تذهب إلى المحقق الذى ينتمى إلى البوليس السرى الشيوعى المعروف باسم عسكرتارية، وعندما تلتقى بالماجور أليو، فإننا نعرف أنها ليست المرة الأولى التى جاءت للاستجواب..

تصف أجواء الرعب التى عاشها الناس فى رومانيا طوال نصف قرن من الزمان، هذه المرأة بلا اسم، ترتدى زى عاملات المصانع، والرواية تقارن بين الترام البطىء المزدحم بالركاب وبين مسيرتها فى حياتها، تتحدث عن الابن «اليو»، الذى اكتسب سمات أبيه، فهو أيضًا شخص ملىء بالقسوة، سرق أموال أجداده فى القرية، وتم القبض عليه من الشرطة العادية..

من بين أسباب الرعب فى تلك الفترة، أن الجميع يمكنهم أن يبلغوا عن سلوك الآخرين إلى السلطات، ومن بين هؤلاء، الجيران، وساعى البريد.

وتروى المـرأة عن الرجال فى حياتها، فقد تم اسـتدعاء زوجها إلى الخدمة العسـكرية، وحاول حموها أن يغويهـا، وعندما صدته، راح يضغـط عليهـا، وأن يؤلمها. وهو يقـول لها: «أنت تسـتخدمين عقلك لمساعدة أولادك. وهذا العقل هو سبب الألم».

تروى المرأة أن القوة المطلقة فاسـدة، وتعترف أنها شـبعت جنسيًا مع إحدى نسـاء السـوق وأنها بذلت أقصى ما لديها من أجل الاحتفاظ بإنسـانيتها، كما حاولت الكشف عمَّا عاناه الآخرون لمجرد أنهم قالوا كلماتهم، لذا، فهى تذهب إلى أقصى الحدود، لتشاهد كيف تم قتل أحد معارفهـا رميًا بالرصاص. وعندما تعود مرة أخرى إلى الجنرال «اليو»، فإنها تعانى مجددًا من كل وسائله فى التعذيب، وهو يشدها من شعرها، كى يجبرها على الاعتراف بأقوال وأمور لا تعرف عنها شيئًا.

تونى موريسون

لا لم تفز الأمريكية «تونى موريسون» وحدها بجائزة نوبل فى عام ١٩٩٢، بل فازت بهذه الجائزة كل الكاتبات الزنجيات اللاتى أصبحن ظاهرة أدبية فى السنوات. استطعن جميعًا أن يسحبن البساط من الروائيين الآخرين الذين بدوا كأنهم قد سيطروا على الساحة، خاصة الأدباء اليهود الذين لعبت وسائل الإعلام الغربية دورًا ملحوظًا فى صنع شهرتهم وفى حصولهم على الجوائز المحلية فى الولايات المتحدة أو فى خارجها ومنها بالطبع جائزة نوبل.

ونحن لا نسعى للتعريق بالكاتبة، لكن ما يهمنا هو إلقاء الأضواء على هذه الظاهرة المتواجدة فى ساحة الأدب العالمية والتركيز على سماتها من ناحية، ثم على صورة نموذجية منها متمثلة فى روايات «تون موريسون» القليلة العدد من ناحية أخرى.

فى الولايات المتحدة توجد مجموعة كبيرة من الكاتبات الزنجية اللاتى سبقن غيرهن فى الحصول على الجوائز الأدبية، وهن ينتسبن جميعًا إلى الحركة النسائية التى تناضل مع موقف المرأة من قضايا

المجتمعـات المحلية والعالمية، وأيضًا تنادى بـأن على المرأة أن تُعامل كمخلـوق له واجباته وعليه حقوقه، وليس كشـىء عليه فقط أن يمتثل لأوامر الرجل دون نقاش أو جدل؛ فكأنها آلة للطاعة والامتثال.

والغريـب أن فى قائمة هؤلاء النسـوة المناضلات الكثير من الأسماء، منها «أليس ووكر» التى كانت أكثر شـهرة من «تونى موريسون» نفسها طوال الثمانينيات، خاصة بعد حصولها على جائزة «بوليترز» فى الأدب عـام ١٩٨٣ عن روايتها «اللـون قرمزى»، التى حولها المخرج «سـتيفن سـبيلبرج» إلى فيلم سينمائى فى عام ١٩٨٦.

ومـن هؤلاء الكاتبـات أيضًا هنـاك «باولى مارشـال» و«مايـا أنجلو»، و«مارجريـت ووكر»، ثم «جلوريـا تايلور» و«نوزياك شـانج»، و«أودرى لـوردى»، و«جيل جونـز» وغيرها من الأسماء. وهؤلاء النسـاء الزنجيات ينتمـين إلى الجنوب الأمريكى، وقد أصدرن مجلة تحمل عنوان «نسـاء»، تولت رئاسـتها «تونى موريسـون». وفى العقد الأخـير زاد عدد القادمات منهن إلى سـاحة الإبداع. وكان من المتوقع أن تتسع حركة النسوية السوداء بعد حصول «تونى موريسون» على نوبل. وقد حدث ذلك بالفعل فيما بعد.

ولعل «باولى مارشـال» هى الأكبر سـنًا بين هؤلاء الكاتبات. فهى من مواليـد «بروكلين» عام ١٩١٦، وقد نشـرت روايتها الأولى «فتاة سـوداء وحجارة داكنـة» ثم «المختار» عام ١٩٦٩ و «أغنيـة لأرملة» عام ١٩٨٣. وفى مجموع أعمالها تتناول أحوال المرأة الزنجية فى مراحل مختلفة من حياتها: المراهقة والناضجة والعجوز. وتقول مجلة «ماجزان ليترير» فى

العــدد الخاص الذى أصدرته عــن الأدب الأمريكى عام ١٩٩٠ : إن أعمال «باولى» تســتحق أن تكون أكثر شهرة، فهى بالغة الأهمية عن الكثير من الروايات التى حققت نجاحًا.

وقــد وددنا أن نوضح نموذجًا من هــذه النماذج باعتبار أننا أمام أدب مغبــون على رغم جودته، وأنه لولا الجوائز العالمية ما انتهينا إليه وما كتبنا أو قرأنا عنه، ولظل فى دائرة الظل، ولعل هذا من حسنات الجوائز الأدبية التى تمتلىء أيضًا فى حيثيات منحها بالكثير من السلبيات.

أما عن «غلويه أنطونى روفورد» المعروفة تحت اسم «تونى موريسون» والمولودة فى ولاية «أوهايو» بجنوب الولايات المتحدة فى ١٨ فبراير عام ١٩٣١ فقد كانت نسـوية تمامًا فى رواياتها الســت المنشورة بين عامى ١٩٧٠ و١٩٩٢ وهى على التالى: «العيون الأشد زرقة» ١٩٧٠ ثم «صولا» عام ١٩٧٤ و«أغنية سليمان» عام ١٩٧١ و «طفل من فصيلة نبات القرنية» عام ١٩٨١ ثم «محبوبة» التى حصلت على جائزة «بوليترز» عام ١٩٨٨، ثم «جاز» فى عام ١٩٩٢.

فــى كل هذه الروايات نحن دائمًا أمام نفس المرأة الزنجية من خلال ثلاثة أجيال من النســاء. الجيل الأول عاش سنوات العبودية أو قارب ذلك. أما بنات الجيل الثانى فيحاولن نســيان هذا الزمن، ويصنعن عالمًا خاصًا يحاولــن من خلاله صناعة هوية ثقافيــة واجتماعية خاصة مثل موســيقى الجاز. أما بنــات الجيل الثالث فهن أكثر تحررًا وســعادة،

لكنهن تبعًا للعصر أكثر معاناة. ولذا فرغم أن الماضى بالغ القسوة فإنه أكثر رحمة من الواقع الراهن، وعليه فإن روايات الكاتبة مليئة بالحنين إلى سنوات العشرينيات.

وفى عالم «تونى موريسون» هناك دومًا العنف. هذا العنف بدرجاته المختلفة موجود فى كل الأزمنة فى الحرب الأهلية، وفيما بعد الحرب وأيضًا فى القرن العشرين. والغريب أن أغلب نساء هذه الروايات لا يعشن فى القرن العشرين، فأحداث رواية «محبوبة» مثلاً تدور فى عام ١٨٧٢ أى بعد نهاية الحرب الأهلية بخمس سنوات.

والنساء فى هذه الروايات يتسمن بجمال وحسية وغريزة متقدة، ومع ذلك فإنهن يعانين من افتقاد ملحوظ لعلاقة كاملة مع طرف آخر. بدا هذا واضحًا من خلال القزمة الزنجية «بيكولا» فى روايتها الأولى «العين الأشد زرقة».

وهذه القزمة التى سيتكرر ظهور مثيلة لها فى روايات أخرى للكاتبة، لا تعانى فقط من أنها ضئيلة الجسم بل لأنها أيضًا زنجية. ومن أجل أن تهرب من عالمها البشع فهى تدخل فى متاهات من الأحلام وترى نفسها وقد أصبحت شقراء مثل الممثلة الطفلة «شيرلى تمبل»، أو زرقاء العينين مثل الأطفال البيض، ولا تتمنى الفتاة ذلك لأن البشرة البيضاء والعيون الزرقاء والشعر الأشقر ليس بالنسبة لها سوى جواز مرور نحو عالم الحب. أى نوع من الحب، حتى الحب المحرم، فهى محرومة من كل هذه المشاعر المتبادلة.

ومثل هذه الفتاة يتكرر ظهورها مرة أخرى في رواية «صولا»، لكنها تحمل أسماء مختلفة، فنحن مجددًا أمام قزمة تعيش في عالم غريب عنها وبسبب لونها وحجم جسمها فإنها تنشد الصفاء. و «صولا» تبحث عن حب منشود لكن بلا جدوى. وفي وحدتها التي تعيشها في قرية صغيرة بالجنوب الأمريكي يمكن لمثل هذه المرأة أن تكون فريسة لخصم لا ينتهي من البشر. وتروح «صولا»، من أجل أن تخرج من وحدتها القاسية، تبحث لنفسها عن دور فتمارس التمرد وتدافع عن حق المرأة الزنجية بصفة خاصة، وعن الزنوج بشكل عام.

ولأن مثل هذه المرأة أضعف من قدرها، فإن كل ما يمكنها أن تفعله هو التمرد. وتعيش «صولا» مع أمها وجدتها، وهما تمثلان جيلين مختلفين، كما أنها ترتبط بفتاتين من نفس سنها ولونها تحاول من خلال الاتصال الحسي والوجداني مع واحدة منهما- هاهي ذي «نيل» أن تنسى متاعبها. فالرجل الزنجي لا يميل عادة إلى امرأة من نفس لونه، كما ترى. ولذا فإن العنف هو البديل للحب في هذا العالم، وتدور أحداث هذه الرواية في عشرينيات القرن العشرين. وهي نفس الفترة التي دارت فيها أحداث رواية «جاز».

وترى «توني موريسون» أن عشرينيات القرن الماضي هي بمثابة العصر الذهبي للزنوج على رغم الاضطهاد العنصري وعلى رغم المعاناة الشديدة للسود. وذلك الاضطهاد الذي عاشوه وجعلهم أكثر ثباتًا وتماسكًا. وقد

ســاعدهم ذلك على إبداع فنونهم الخاصة مثل موسيقى الجاز، وذلك فى فترة كان مخرجو الســينما إذا أرادوا أن يستعينوا بممثل أسود، فإنهم يدهنون وجه ممثل أبيض بالفحــم. وفى هذه الرواية هناك امرأتان من جيلين مختلفــين ورجل واحد. الفتاة الصغيرة تســمى «دوركاس»، لم تتعد الثامنة عشــرة من العمر، وهى تختلف عــن النموذج القزمى فى رواياتها الســابقة. فهى حســناء وناهدة وجذابة، لكنها فقيرة تحتاج إلى المال. لذا فهى توافق أن ترتبط عاطفيًا برجل فى الخمسين من العمر متزوج من امرأة فى نفس سنه.

وأبطال الرواية الثلاثة من الزنوج، وترى المؤلفة أن عالم الزنوج، فى داخله، أكثر قســوة من عالم يجمع بين البيض والزنوج، الرجل «جون» يمنحها الهدايا ويعطيها من الأشــياء ما هــى محرومة منها، لكنه لا يهبها شــيئًا تنشده، ألا وهو مشــاعر حب حقيقية. فالفتاة تتمنى أن يحبها شــاب فى مثل سنها ولو كان ذلك بشــكل فجائى، هذه العلاقة ســرعان ما تكتشفها زوجته «فيوليت» وتســتفيد منها. فالزوج الكبير ســنًا «جو» لا يتردد فى قتل الفتاة عندما يكتشف أنها تفضل عليه شابًا صغيرًا. ولأن الزوجة عليها ألا تفقد زوجها، فإنها تســاعده فى دفنها ومواراتها التراب بكل قسوة وبدون أدنى إحساس بالشفقة.

الجدير بالذكر أن هذا العالم الشــديد القسوة موجود بشكل واضح فى روايات الكاتــب الزنجى «ويليام بولدوين»، وهو أيضًا ملىء بالعلاقات

الجنسية غير السوية. وفى روايات بولدوين هناك الرجال الذين يملؤهم الإحباط وتنتهى أمورهم إما بالانتحار وإما بالموت. وإذا كانت بطلات تونى مويسون فى أعمالها الأولى قد اخترن الحلم الوردى بدلاً من العنف، فإن هذه السمة قد افتقدتها بطلات رواياتها الأخيرة، خاصة «محبوبة» حيث تنتهى الأمور بأن تموت «محبوبة» على يدى أمها التى تقتلها كى تخلصها من العبودية. فالأم ترى أن أمام ابنتها مصيرًا واحدًا من اثنين: الموت أو العبودية. ولا شك أن الموت المتحرر أفضل، ولذا فالقتل فى هذه الحالة نوع من الحب.

تقول الناقدة «كلودين رينو» - مجلة «ماجزان ليترير» (أكتوبر ١٩٩٠) - إن عالم تونى موريسون ملىء بالسخريات المأساوية. فالنساء يعشن فى قسوة وعنف وسخرية قاسية. ولا يتعلق الأمر بالواقعية الخيالية لعمل يقوم على بناء وهدم الأسطورة الإنشائية، بدءًا من الفولكلور والاعتقادات. وأساليب الحياة فى التجمعات السوداء وماضى إفريقيا. بل إن الخيال هو واقع ثقافى وبذور لا تثمر إلا بعد أن تشكل الخيالات. وحسب اعتراف الكاتبة، فإن قصص موريسون نمطية تملؤها البساطة من فوق السطح، لكنها مليئة بالاعتراضات والتناقضات بين الخير والشر، بين القبح والجمال، بين الحب والموت. وتلك سمات موجودة بشكل واضح فى رواياتها. فالكاتبة ترفض الرؤى المعرفية للقراء البيض، ولسنا هنا أمام روايات إضافية عن السود. لكنها ثمار لأفكار

الكاتـب ومواقفه تجاه المجتمع الأمريكـي. فالعمل المكتوب يحمل وجهة نظر سوداء خاصة فيما يتعلق بالعلاقات بين النساء، والصداقات، وعلاقات الأمهات بالبنات التي تأخذ شكلاً مختلفًا عن أدب يكتبه الرجل الأبيض.

ولـذا فإن القـراء البيض عليهم أن يبذلوا جهـدًا فيما بينهم من أجل تفهم وجهة النظر، وذلك لأن تونى موريسـون تـرى أن على القارئ أن يشارك فى الحدث بكل حيادية.

فاسوافا شيمبروسكا

يمكن تسميتها بصندوق المفاجآت. ذلك حال جائزة نوبل، فهى تطلع على الناس بما ليس متوقعًا، فتخيب الآمال وتصنع الدهشة على الألسنة والأقلام. ويتم دائمًا طرح السؤال المتكرر: لماذا؟! وتبدو الإجابة شديدة الغموض، فلا أحد من داخل الأكاديمية يرد وليس من إجابات سوى فقرة صغيرة مصحوبة باسم الفائز فيها حيثية بالغة الاقتضاب يلقيها رجال الأكاديمية أمام ممثلى الإعلام، ثم يغلق الباب على صندوق المفاجآت لمدة عام جديد.

وقد أثار فوز الشاعرة البولندية «فاسوافا شيمبروسكا» بجائزة نوبل فى الأدب عام ١٩٩٦ دهشة بالغة، ليس فقط لأن اسمها بدا غريبًا على ألسنة الناطقين باللغات اللاتينية، بل ولأن الدور كان يقينًا على روائى أيًا كانت أهميته. وفى صباح اليوم التالى لإعلان الجوائز أشارت وسائل الإعلام إلى أن عدد القصائد المترجمة إلى اللغتين الإنجليزية والفرنسية قليل للغاية، وإن كانت تتمتع بأهمية فى عالم الشعر. ولأنه ليست هناك إجابات محددة عن أسباب اختيار هذه الشاعرة أو غيرها،

فـإن المهتمين بالجائزة كثيرًا ما تكون أسـئلتهم المطروحة حول غرابة أكاديمية سـتوكهولم أكثر من الإجابات الصحيحة لهذه الأسـئلة. ولا شـك أن التوزيع الجغرافي الذى تحرص عليـه الأكاديمية يلعب دورًا أشبه بالزوليت الروسـى فى التكهن والاختيار. كما أن الأكاديمية، تبدو خاصة، فى مجال الشعر وكأنها تخرج اسـم الفائز من القبو لإلقاء الضوء عليه لمدة عام تقريبًا، ثم يدخل بشكل تلقائى إلى مقبرة النسيان حتى لو ظل على قيد الحياة لمدة طويلة.

وفى عالم الشعر، فإننا نتساءل عن عطاء كل من التشيكى «ياروسلاف سيفيرت» الذى نالها عام ١٩٨٤ ومات فى صمت عام ١٩٨٩. ثم بين كل من النيجيرى «وول سوئيكا» ١٩٨٦ والروسـى «برودسكى» الذى مات عام ١٩٩٥، وانجرى ايميرش عـام ٢٠٠٢، و «الترندارى ديريك والكوت» ١٩٩٢، و «شـيموس حينى: الأيرلنـدى الذى فاز بالجائزة عام ١٩٩٥. كلهم يحملون الآن لقب حامل نوبل ولا يذكرون إلا بهذا الوسام الأدبى. ولم نـر الجديـد لأى منهم. وكأن دور الجائزة هو إحياء اسـم مجهول لبعض الوقت، بل أين شيمبروسـكا الآن من خريطة الاهتمام؟!

«فاسـوافا» هى المرأة التاسعة فى تاريخ الجائزة وثالث سيدة تفوز بها فى التسعينيات. أى إن عدد الرجال الذين فازوا بالجائزة حتى عام ١٩٩٦ يسـاوى عدد النسـاء، كما أنها الكاتب الرابع الذى يفـوز بالجائزة فى بولندا بعد هنريك سلكفيتش ١٩٠٥ صاحب الرواية الشهيرة «كوفاديس» ثـم الروائى فلاديسـلاف ريمونت ١٩٨٠ ثم الشـاعر شـيزلاف ميلوش

١٩٨٠ الذى نال الجنسية الأمريكية والذى اكتسب شهرته من انتقاداته الخفيفة لسياسة بلاده الشيوعية سابقًا، وهى نفس النقطة التى تم التركيز فيها على الشاعرة «شيمبروسكا» عند إعلان سيرتها الحياتية.

جائزة نوبل لا تزال تمنح إذن بدرجات مختلفة؛ كنوع من المكافأة على مواقف الأدباء المناصرة للغرب. انظر الحيثيات المعروفة عن الشعراء الأربعة الذين نالوها منذ عام ١٩٨٤ وحتى الآن، والذين ينتمون إلى أوروبا الشرقية وهم «ميلوش، سيفرت، برودسكى، وشيمبروسكا» بالإضافة إلى الروائى «إلياس كانينى»، والغرب لا ينسى أبدًا أنه كان هناك أيدلوجية ضارية تنافس وتجابَه، ولذا من المهم مناصرة من جابهوا هذه القوة.

وعلى المستوى الشعرى فإن شيمبروسكا هى موتسارت الشعر، كما جاء فى حيثيات منحها. وهى تعبيرات تذكر لغير المتابعين لأعمال كاتب غير معروف. وذلك اختصارًا للتعريف بها، فيكفى على من يسمع هذا التعبير أن يتأكد أن مكانتها فى الشعر مثل مكانة موتسارت دون أن تعرف أين مكانه بالضبط. هل الشعر بشكل عام فى كل تاريخه أم فى بولندا؟ أم شعر القرن العشرين أم شعر الحقبة التى أبدعت فيها الشاعرة؟. وكما يلاحظ القارئ فإن تساؤلاتنا لا تزال لها أكبر مساحة من الإجابات. ودعنا نطرح كل هذه التساؤلات لنتعرف إلى موجز تاريخ الشاعرة، فهى من مواليد الثانى من يوليو ١٩٢٣ فى مدينة «كورنيك» الواقعة فى غرب بولندا، وتلقت تعليمها فى جامعة كراتوفيا العاصمة

التاريخية لجنوب البلاد، وهى المنطقة التى عاشت بها طوال حياتها.

نشـرت الشـاعرة قصائدها الأولى عام ١٩٤٥، أى وهـى فى الثانية والعشـرين من عمرها، وقال النقاد إن شعرها المكتوب فى الخمسينيات ينتمى إلى الواقعية الاشـتراكية وذلك فى دواوينها الأولى المنشورة عام ١٩٥٢ و«أسئلة مطروحة على الذات» عام ١٩٥٤. وقد توقفت فاسوافا عن كتابة الشعر لفترة عقب وفاة ستالين عام ١٩٥٢، وعقد المؤتمر العشرون للحزب الشيوعى السوفيتى، واتجهت إلى كتابة النقد والمقالات الفلسفية، وبـدأت فى الاهتمام بالميتافيزيقا، وبدت كم هى متأثرة بدراسـتها عن ديكارت، وباسـكال، ومونتينى، ومالاراميه، والشاعر بول فاليرى، وريلكـه، واهتمت فى كتاباتها بابتـداع مصطلحات جديدة بدأت تجد طريقهـا إلى لغة النقد الأدبى مثل «ضـد التاريخ» و «ضد المعرفة» و«ضد الخلاعة»، ثـم عادت الكاتبة للنظم عندما كتبـت ملاحم صغيرة تدور أحداثهـا فى بلاد خيالية متحفظة. وذات رؤى طوبوية. وفى عام ١٩٥٧ واجهـت الشـاعرة أول معارضة من الرقيب السياسـى عندما نشـرت ديوانهـا «نداء إلى ينى». وحسـب جريدة ليبراسـيون، فـى ٤ أكتوبر ١٩٩٦، فـإن هذا الديوان قد تمت ترجمتـه إلى ٣٦ لغة، والعهدة على الجريدة، منهـا العبرية والعربية والصينيـة واليابانية. وتقول نفس الصحيفة أن للشـاعرة اثنى عشـر ديوانًا ومقالات فى الشـعر الفرنسى القديم وأن قصائدها تتسـم بالقصر والوضوح. وتبدو أحيانًا كأنها قادمة من خارج التاريخ، وهى تحمل نظرة مليئة بالنفاذ تجاه العالم والبشر.

كمـا أن لهـا رؤية مزاجية ذاتيـة. لم يعد يوجد هنـاك ابن أوى الذى يمارس نقده التسـلطى. وهذه العبارة تفسر رؤية الكاتبة للإبداع الذى كانت تتناوله بالنقد.

وعلـى رغم ما قالتـه الجريدة عن اللغات التـى ترجمت لها قصائد «فاسـوافا»، فإنها تعود إلى أن القارئ البولنـدى العادى كان يمكنه أن يعـد كتبها فى أرفـف المكتبات، وقد علاها النسـيان، ذلك قبل إعلان فوزها بقليل.

ويتفق النقاد الذين تابعوا أعمال الشاعرة إن إبداعها اتسم باستقلالية الروح وابتعادها عن ممارسة السياسة بشكل مباشر، وإن كان هذا لم يمنع أن تكون من المعارضين للشيوعية. لقد كانت عضوًا فى حركة KOP، وهو اختصار لاسـم منظمة المفكرين المعارضين، وهى المنظمة التى أيدت بقوة نقابة التضامن وسـاعدت فى ميلادها عام ١٩٨٠. وقد عبرت الشاعرة عن آرائهـا فى كتاباتها النثرية أكثر من أشـعارها حيث كانت تكتب مقالاً شهريًا فى جريدة «نيبروسكا» التى أصدرها المثقفون المناهضون للشيوعية واليسـار. وليسـت «نوبل» هـى أول جائزة أدبية دوليـة تحصل عليها الكاتبة، فقد سبق أن حصلت على جائزة «جوتة» من مدينة فرانكفورت، وعلى جائزة «هرور» النمسـاوية. وقد كتب عنها «شيزلاف ميلوش» فى كتابه عن الشعر البولندى المعاصر أنها صاحبة رؤية فلسفية فى قصائدها دون اعتناء بالشعر الفلسـفى. بلا شك فقد أبدعت أحسن ما لديها عندما حملتها غريزتها النسوية أن تبحث فى جذور وجودها.

أنا قريبة.
قريبة جدًا من الحلم الذى يسكننى.
أسحب ذراعى من تحت رأسى النائم.
أحس كأننى محاطة بسنون الإبر.
فوق كل واحدة منها. تنتظر أن يحصيها.
وهناك تقف الملائكة. الرجال.
وفى قصيدتها «بورتريه لامرأة» تقول:
عليها أن تعبر نفسها لاختبارها.
وأن تغير الصنف الذى لم يتغير.
الأمر سهل، ومستحيل، وصعب، ومؤلم.
عيناها زرقاوان، رماديتان.
لكنها تطمع فى عينين سوداوين مبتهجتين.
لا تملؤها الدموع بلا سبب.
تنام معه وكأنهما لأول مرة.
وكأنه تفردها وأمرها الأوحد.
فتمنحه أربعة أطفال.